# العلم بالعربية واجب ديني

**حافظ شبير أحمد جامعي**
**عضو هيئة التدريس و دار الإفتاء**
**في قسم الدراسات الإسلامية**
**بجامعة بهاولبور الإسلامية - باكستان**

وضعت اللغات لدي شعوب الأرض لإقدارها على التفاهم والتواصل، وحملت اللغات رسالات السماء إلى الأرض، وتمكن الخلق بواسطتها من تنظيم فكره وتطويره.

واللغة العربية حملت آخر الرسالات، وأريد لها أن تكون لسان الوحي، وقدر لها أن تستوعب دليل نبوة الإسلام، واختزال مضامين الرسالات السابقة، والانطواء على المنهج الذي ارتضاه الله لخلقه إلى يوم الدين(١).

وقد كانت دراسة اللغة العربية عند الأقدامين مرتبطة بالعامل الديني؛ ونتيجة لهذا الارتباط الوثيق فقد خلقت لنا العصور الأدبية على امتداد التاريخ اهتماما كبيرا بلغة القرآن سواء فيما يتصل برصد مروياتها من الآثار الأدبية من شعر ونثر، أو فيما يتصل بإحصاء مفرداتها، وتسجيل أوا بدها وغرائبها في المعجمات والقواميس اللغوية، أو فيما يتصل باستنباط القواعد والأسس التي تعنى بسلامتها ، والمحافظة على أصولها الموروثة، ووضع الدراسات اللغوية الخاصة باكتناه أسرارها، والكشف عن خصائصها ومميزاتها(٢).

ويقـرر هـذا أبـو منصور الـثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ) إذ يقول: "من أحـب الله- تعـالى- أحـب رسـوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحب الرسول العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية التي بها نزل أفضـل الكتـب عـلى افضـل العجـم والعـرب، ومن أحب العربية عني بها، وثابـر عليها، وصـرف همـته عليها، ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أن محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسـل، والإسـلام خـير الملـل، والعـرب خـير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم، ومفتاح الثقة في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد.

ثـم هـي لإحـراز الفضـائل، والإحـتواء عـلى المـروءة، و سائر أنواع المناقـب كالينـبوع لـلماء والـزند للنار، ولو لم يكن في الإحاطة بخصائصها، والوقـوف عـلى مجاربهـا ومصـارفها، والتبحر في جلائلها و دقائقها إلا قوة الـيقين في معـرفة إعجـاز القـرآن، وزيـادة التبصـر في إثبات النبوة التي هي عمـدة الإيمـان لكفـي بهمـا فضلاً، يحسن فيهما أثـره، ويطيب في الـدارية قمـره(٣).

فاللغـة العربية ليست مادة لفظية أصواتا مسموعة فحسب، لكنها- إلى جانـب ذلك- طاقة فكرية وعلمية وشعورية تحمل في مضمونها فعاليات النشاط الإنساني والحضاري بأبعاده وألوانه.

والعالم بدوله وشعوبه لن يفهم العرب حق الفهم، ولم يدرك الإسلام وحضـارته تمـام الإدراك إلا بواسـطة اللغـة العربـية، ذلـك المفتاح السحري القـادر عـلى إزاحـة السـتار الحديـدي أمـام العـالم لفهـم حقـيقـة العـرب والمسلمين(٤).

العربـية ليسـت كأيـة اللغـات الأخـرى، بل هي فريدة من نوعها، اصـطفاها الله مـن بـين اللغـات جمـيعا لـتكون وعاء لكتابه الخالد: (القرآن

الكريم)، كما اختارها لتكون لسان نبيه الأمين؛ لذا أوجب الشارع الحكيم تعلمها؛ حتى تفهم مقاصد الكتاب والسنة.

يقول الإمام الشافعي- رحمه الله -: " فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده؛ حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك"(٥).

وارجع شيخ الإسلام أحمد بن تيمية- رحمه الله- الخلط في الدين- عند أهل البدع- إلى قلة فهم اللغة العربية؛ فقال: " لا بدّ في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يفهم كلامه، ومعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين علي أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك ضلال أهل البدع كان لهذا السبب؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله علي ما يدعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك(٦).

ويؤكد هذه الحقيقة الجاحظ(١٥٩-٢٠٠هـ) فيقول:

"للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم معانيهم و إراداتهم... فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل. فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك(٧).

من هنا: أوجب شيخ الإسلام ابن تيمية علي المسلم تعلم اللغة، فقال: " إن معرفة اللغة من الدين، ومعرفتها فرض واجب وإن فهم الكتاب والسنة فرض ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب(٨).

ولعل هذا هو ما دفع العلامة أحمد بن فارس (٣٩٥هـ) إلى إفراد باب في كتابه(الصاحبي) تحت عنوان: "باب القول في حاجة أهل الفقه والفتيا إلى معرفة اللغة العربية" يقول فيه: "إن العلم بلغة العرب واجب على

كل متعلم من العلم بالقرآن والسنة والفتيا بسبب، حتى لاغناء بإحد منهم عنه؛ وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عربي، فمن أراد معرفة ما في كتاب الله عزوجل، وما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب، لم يجد من العلم باللغة بداً"(٩).

وغاية القول: إن فهم النصوص هو منطق البحث عن الأدلة الشرعية، والفهم موكول إلى المعرفة الدقيقة باللغة. وبتصاريف القول فيها، إذ لا يتأتي استنباط حكم لا تقتضيه طبيعة اللغة.

فالمعني الشرعي يؤخذ من الدليل اللفظي، وقد يستدل عليه بغير اللفظ ؛ ولكن يظل اللفظ دالا على المعني التابع لقصد المتكلم. فاللفظ في تصور الأصولي هو دليل الحكم على صحة الفكر أو خطئه؛ إذ اللغة ترجمة لما يجري في الفكر؛ من هنا أخذت اللغة عند الأصوليين منحني علميا، أصبحت به وسيلة لاستنباط الحكم، تتجه إلى الإصطلاح وتخاطب العقل.

والشافعي في وضعه للأصول المعتمدة في فهم النصوص وتأويلها اعتمد منطق اللغة العربية. وقد أورد السيوطي(٩١١هـ) قول حرملة بن يحي: سمعت الشافعي يقول: "ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس... ولم ينزل القرآن ولا أتت السنة إلا على مصطلح العرب ومذاهبهم في المحاورة والتخاطب والإحتجاج والإستدلال لا على مصطلح اليونان، ولكل قوم لغة واصطلاح"(١٠).

وهكذا يتضح أن المنهج في استنباط الحكم من النص أسس على منطق العربية، وابن خلدون وهو يؤرخ للعلوم في الحضارة الإسلامية أطلق علوم اللسان العربي على علوم العربية، وجعلها أركانا أربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب. وقرر أن"معرفتها ضرورية على أهل الشريعة؛ إذ إن مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من

الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها في لغاتهم، فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"(١١).

بدهاء شديد ومكر خبيث اتخذ أعداء الإسلام اللغة العربية بوابة خلفية؛ للنيل من المسلمين وإبعادهم عن عقيدتهم. واستخدموا صنوفا من المكائد للوصول إلى مآربهم الخسيسة، ومراميهم الدنيئة، وهي عديدة متنوعة!

ويحدد الأستاذ محمد قطب بعض الخطوات التي اتبعها أعداء الإسلام لضرب الدين عن طريق اللغة، فيقول(١٢):

حينما تولي (المستردنلوب) القيس الثري- عينه كرومر مستشاراً لوزارة المعارف- جاء د نلو ب ليضرب الأزهر على الأسلوب البطيئ الأكيد المفعول؛ ففتح مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية، ولا تعلم الدين إلا تعليما هامشيا. أما من ناحية اللغة العربية: لغة القرآن الذي يحترق قلب الصليبية حقداً عليه؛ فقد خطط دنلوب لقتلها والقضاء عليها! قد كان الراتب الذي يتقاضاه المدرسون من أصحاب المؤهلات العليا اثني عشر جنيها إلا مدرس اللغة العربية وحده يتقاضى أربعة جنيهات! وكان لهذا الوضع انعكاساته ولا شك سواء في داخل المدرسة أو في المجتمع.

ففي المدرسة: لم يعد مدرس اللغة العربية هو المقدم بل أصبح في ذيل القافلة! يتقدمه المدرسون جميعا حتى ذووالمؤهلات المتوسطة، بل يتقدمه- في الراتب- فراش المدرسة أحياناً إذا كان أقدمية؟!! ومن ثم لم تعد له كلمة في المدرسة، فلا هو مستشار في شئونها ولا هو يشارك في شئي من ادارتها! ولم يعد له حتى عند التلاميذ أي احترام ولا أي حساب.

أما في المجتمع: فهو أشد ضياعا منه في المدرسة؛ فالناس جميعا يعلمون وضعه المالي ويعلمون أنه في ذيل القائمة، وأن المدرسين الآخرين مقدمون عليه في الراتب والإحترام!

وهكذا يتحدد وضع مدرس اللغة العربية في المجتمع بقدر ما يتحدد راتبه، ويصبح مادة دائمة للسخرية يتحدث الناس عن جهله و تخلفه وضيق فهمه وانحطاط مستواه الإجتماعي والفكري، وأشد ما يعاب عليه أنه لا يعلم اللغة الأجنبية! وحين أصبح مدرس اللغة العربية في هذا الوضع المهين الذي لا يبعث على الاحترام. فإن وضعه يؤثر حتما على المادة نفسها، وهذا هو الهدف المقصود!

وبالفعل انتقل هذا الوضع المهين المزري من المدارس إلى المادة؛ وبذلك أصبحت اللغة العربية موضع الا زدراء والتحقير والنفور؛ فالطلاب يشكون من صعوبة اللغة من نحو وصرف وبلاغة ونصوص وأدب-

وهكذا صوبت الهام إلى اللغة العربية من كل جانب، ولم تعد شيئا يعتز به المسلم العربي كما كان يعتز به طيلة ثلاثة عشر قرنا من قبل؛ بل أصبحت معرة يسارع الإنسان إلى الإنسلاخ منها، وتمتين العيب فيها، والإنتقاد عليها؛ لكي يصبح من المثقفين! !ولم يكن بد من أن ينتقل هذا الوضع المزري من اللغة ذاتها إلى ما هو مكتوب بتلك اللغة. وكان هذا هو الهدف الأخير المطلوب من ذلك التخطيط الخبيث!

فالمكتوب باللغة العربية هو ذات الأمر كله، وهو القرآن الكريم والمطلوب هو: صرف الأمة عن تراثها كله وعلى رأسه القرآن. وانصرف الناس بالفعل عن قرآنهم وتراثهم بالتدريج؛ فلم يعد يشعرون أنه هو الزاد إنما الزاد هو المكتوب بلغة السادة الغالبين!

وقد تم صرف المسلمين في تركيا عن تراثهم الإسلامي بتغيير الحروف العربية، وكتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية على يد أتا تورك، وتصفية اللغة التركية من معظم الكلمات العربية التي تتضمنها؛ لتنشأ أجيال تعجز عجزا كاملا عن الإتصال بتراثها الإسلامي، فتنقطع عنه وتنشا بلادين، وقد قامت في مصر محاولات مشابهة على يد عبدالعزيز فهمي وغيره؛ ولكنها ولدت ميتة ولم يقدر لها النجاح.

وبعد: فلنفسح المجال لأديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي؛ لنجدد معه صرخته التحذيرية التي نفضح النتائج المنشودة من وراء الحملة المسعورة على لغة القرآن الكريم، إذ يقول(١٣):

"ما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار. ومِن هنا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة التي يستعمرها ويركبهم بها ويشعرهم عظمته فيها، ويحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد: فالأول: تحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا. والثاني: الحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا. والثالث: تغيير مستقبلهم بالأغلال التي يضعها؛ فأمرهم من بعدها لأمره تبع".

***

# الهوامش

١. العلم بالعربية ضرورة عقيدية: للدكتور عباس أرحيلة، ص ٨٢ بتصرف يسير- (مقال منشور بمجلة منار الإسلام: عدد محرم ١٤١٥هـ).
٢. مقالات وآراء في اللغة العربية: للدكتور حمد بن ناصر الدخيل، ص ٥٣ ، ٥٤، الطبعة الأولى- دارالشبل بالرياض، سنة ١٤١٥هـ.
٣. فقه اللغة العربية وسر العربية: للثعالبي،(المقدمة)، بتحقيق السقا وآخرين، ط الحلبي، سنة ١٣٩٢هـ.
٤. مقالات وآراء في اللغة العربية: ص٥٨.
٥. الرسالة: للإمام الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر.
٦. الإيمان: لابن تيمية: ص١١١
٧. الحيوان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ١٥٤/١، الطبعة الثانية، مصطفي الحلبى.

٨. إقتضاء الصراط المستقيم: لا بن تيمية، ص٢٠٧

٩. الصاحبي: لأحمد بن فارس، تحقيق أحمد صفر، ص٥٠، الطبعة الأولى، عيسى البابي الحلبي- سنة ١٩٧٧.

١٠. العلم بالعربية ... ضرورة عقيدية، ٨٧، وانظر صون الكلام عن فن المنطق والكلام: للسيوطي، شرح وتعليق للدكتور سامي النشار، ص٤٥، الطبعة الأولى، السعادة سنة ١٩٤٧م

١١. المرجع السابق: ص٨٧، راجع مقدمة ابن خلدون، تحقيق د- علي عبدالواحد وافي: ١٢٢٤/٣، ص٣٠، دار نهضة مصر للطبع والنشر، سنة ١٩٧٧م.

١٢. واقعنا المعاصر: محمد قطب، ص ٢٢٣,٢٢٢.

١٣. وحي القلم: للرافعي، ٣٣/٢.

* * *